

الحنين الى الاوطان

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

سلسلة اللغة والأدب

١

الحنين إلى الأوطان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

دار الرائد العربي

بيروت • لبنان

ص.ب. ٦٥٨٥

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة وصنف من الأدب - سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدو^(١) على جمع ما كان متفرقاً ؛ ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار ، وضَمَّ كلَّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شكله ، وتأليف كلِّ نادرٍ من الحكمة إلى مثله ، - بطلت الحكمة وضاع العلم - وأميت الأدب - ودرَسَ مستورٌ كل نادر . ولولا تقييدُ العلماء خواطِرهم على الدهر ، ونقرُّهم آثار الأوائِل في الصخر ، - لبطل

(١) يحدو - حذاه على الأمر بعثه عليه .

أولُ العلم وضاع آخره ؛ ولذلك قيل : لا يزال الناسُ بخير ما بقيَ الأوَّلُ يتعلم منه الآخر .

وإنَّ السببَ على جمع نُتفٍ من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها ، وشوقِها إلى تربتها وبلدانها ، ووصفها في أشعارها تَوَقُّدَ النار في أكبادها ، - أني فاوضت بعضَ من انتقل من الملوك في ذكر الديار ، والنزاع (١) إلى الأوطان ، فسمعتُه يذكر أنه اغترب من بلد إلى آخر أمهدَ من وطنه ، وأعمرَ من مكانه ، وأخصبَ من جنابه ، ولم يزل عظيمَ الشأن ، جليلَ السلطان تدين له من عشائر العرب ساداتُها وفتيانُها ، ومن شعوب العجم أنجادُها (٢) وشجعانُها ، يقود الجيوش ويسوس الحروب ، وليس ببابه إلاَّ راغب إليه أو راهب منه ، فكان إذ ذكر التُّربة والوطن حنَّ إليه حنين الإبل إلى أعطانها (٣) ، وكان كما قال الشاعر :

إذا ما ذكرتُ الشَّغَرَ فاضتْ مدامعي

وأضحى فؤادي نُهْبَةً للهماهم (٤)

(١) النزاع إلى الشيء الاشتياق إليه .

(٢) الانجاد جمع نجد وهو الشجاع السريع إلى الإجابة فيما دعي إليه .

(٣) الاعطان مبارك الإبل عند الماء ، واحدها عطن .

(٤) الهمام الهموم .

حينئذ إلى أرض بها اخضرّ شاربني
وحلّت بها غني عقود التمام (١)

والطف قوم بالفتى أهل أرضه
وأرعاهم للمرء حقّ التقادم

وكما قال الآخر :

يقرّ بعيني أن أرى من مكانه
ذراً عقداً الأبرق المتقاود (٢)

وأن أرد الماء الذي شربت به
سليمي وقد ملّ السرى كلّ واخذ (٣)

(١) التمام جمع تميمة ، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الاسلام ، ذكره في النهاية لابن الاثير .

(٢) ذرا الشيء بالضم أعاليه الواحدة ذروة بكسر الذال وضمها ، وقال في معجم البلدان : قال ابن الاعرابي الأبرق جبل مخلوط برمل وهي البرقة ، وكل شيء خلط من لونين فقد برق . والمتقاود المستوي ، قال في أساس البلاغة : تقاود المكان استوى قال :
الا ليت شعري هل أرى من مكانه

ذرا عقداً الأبرق المتقاود

(٣) السرى سير عامة الليل وفي المثل « عند الصباح يحمد القوم السرى » . ويقال جمل واخذ ووخاد إذا كان واسع الخطو ، وقد وخذ يخذ وخذ ووخادانا

وَأَلْصَقَ أَحْشَائِي بِبَرْدِ تَرَابِهِ
وَإِنْ كَانَ مَخْلُوطاً بِسَمِّ الْأَسَاوِدِ (١)

فقلت : لئن قلت ذلك لقد قالت العجم : من علامة
الرشد أن تكونَ النفسُ إلى مولدها مشتاقّة ، وإلى مسقط
رأسها تَوَاقّة (٢) . وقالت الهند : حرمة بلدك عليك كحرمة
أبويك — لأنَّ غِذاءك منهما وأنت جنين — وغذاءهما منه .
وقال آخر : احفظ بلداً رشحك غذاؤه ، وارع حمي
أكنكَ فِناؤه . وأولى البُلدان بصبابتك إليه بلد رَضِعتَ
مائه ، وطعمتَ غِذاءه ، وكان يقال : أرض الرجل ظِئْرُه (٣)
ودارُه مهده ، والغريب النائي عن بلده المتنجي عن أهله
— كالثور الناد (٤) عن وطنه — الذي هو لكل رام قنيصه ؛
وقال آخر : الكريم يحن إلى جنابه ، كما يحن الأسد إلى
غابه ؛ وقال آخر الجالي عن مسقط رأسه ومحلّ رضاعه

(١) الاساود جمع اسود وهو العظيم من الحيات .

(٢) تاق اليه توقانا اشتاق اليه فهو تائق وتواق .

(٣) الظئر المرأة التي تحضن ولد غيرها .

(٤) ندا البعير ندا (بتشديد الدال) نفر وذهب على وجهه

شاردا .

كالعَيْر (١) الناشط (٢) عن بلده الذي هو لكل سبع قنينة ؛
ولكل رام دريئة (٣) ؛ وقال آخر : تربة الصبا تغرس في
القلب حرمة وحلاوة - كما تغرس الولادة في القلب رقة
وحفاوة (٤) ؛ وقال آخر أحق البلدان بنزاعك إليه بلد
أمصك حلب رضاعه ؛ وقال آخر : إذا كان الطائر يحن إلى
أوكاره فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه ؛ وقالت الحكماء :
الحنين من رقة القلب - ورقة القلب من الرعاية - والرعاية
من الرحمة - والرحمة من كرم الفطرة - وكرم الفطرة من
طهارة الرشدة (٥) - وطهارة الرشدة من كرم المحتد (٦) ؛
وقال آخر : ميلك إلى مولدك من كرم محتدك ؛ وقال
آخر : عسرك في دارك أعز لك من يسرك في غربتك ، وأنشد :

لقربُ الدار في الإقتار خير
من العيش الموسع في اغتراب (٧)

-
- (١) العير الحمار الوحشي والاهلي أيضا .
(٢) قال في أساس البلاغة : ثور ناشط خارج من ارض الى
ارض .
(٣) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .
(٤) الحفاوة : المبالغة في الاكرام .
(٥) الرشدة : صحة النسب وهي بكسر الراء ، والفتح لغة .
(٦) المحتد : الاصل ، يقال : هو كريم المحتد وهم كرام
المحاتد .
(٧) الاقتار : مصدر أقتر الرجل اذا افتقر .

وقال آخر : الغريب كالغرس الذي زايل أرضه ،
وفتقد شربه ، فهو ذاو^(١) لا يثمر ، وذابل لا ينضج .
وقال بعض الفلاسفة فطرة الرجل معجونة بحب الوطن - ولذلك
قال بقراط : يُداوى كلُّ عليل بعقاير أرضه - فإنَّ الطبيعة
تتطَلَّعُ لهوائها ، وتترزع إلى غدائها : وقال أفلاطون :
غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها ؛ وقال جالينوس : يتروح
العليل بنسيم أرضه - كما تروح الأرض الجذبة ببلل القطر .
والقول في حب الناس الوطن وافتخارهم بالمجال قد
سبق ، فوجدنا الناس بأوطانهم أقنع منهم بأرزاقهم - ولذلك
قال ابن عباس : لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم
ما اشتكى عبدُ الرزق ؛ وترى الأعرابَ تحن إلى البلد الجذب
والمحل القفر والحجر الصلِّد ، وتستوخم^(٢) الرِّيف ؛ حتى
قال بعضهم :

أتجلىن في الجالين أم تتصبري

على ضيق عيش والكريم صبور^(٣)

(١) ذاو : ذابل .

(٢) استوخم البلد ، وهو وخم ووخم بالكسر والسكون
ايضا اذا كان غير موافق للسكن .

(٣) الجلاء : الخروج من البلد . يقال : جلوا عن اوطانهم ،
اذا خرجوا منها .

فبالمِصر بُرغوثٌ وحمىٌ وحصبةٌ
ومومٌ وطاعونٌ وكلٌّ شرورٌ (١)

وبالبيد جوع لا يزال كأنه
ركامٌ بأطراف الإكام تمورٌ (٢)

وترى الحضريّ يُولد بأرض وباء وموتانٍ وقلّة
خصبٍ - إذا وقع ببلاد أريفٍ من بلاده وجنابٍ أخصبٍ
من جنابه واستفاد غنيّ حن إلى وطنه ومستقره . ولو جمعنا
أخبار العرب وأشعارها في هذا المعنى لطال اقتصاصه - ولكن
توخينا تدوين أحسن ما سنح من أخبارهم وأشعارهم وبالله
التوفيق .

ومما يؤكد ما قلنا في حب الأوطان قولُ الله عز وجل
حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب عباده فقال :
(ولو أنا كتبنا عليهم أنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ

(١) الموم : هو البرسام مع الحمى .
(٢) الركام : السحاب المتراكب بعضه فوق بعض . والاكمة :
تل ، وقيل شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة
في مكان واحد وربما غلظ ، والجمع اكم وجمع الاكم
إكام مثل جبل جبال - ومار الشيء تحرك بسرعة .

دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم وقال تعالى (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وقال الأول : عمّر الله البلدان بحب الأوطان ، وكان يقال لولا حبُّ الناسِ الأوطان لخربت البلدان ، وقال عبد الحميد الكاتب وذكر الدنيا : نَفَتْنَا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان ، وقالت الحكماء أكرم الخيل أجزعها من السوط ، وأكيس الصبيان أبغضهم للكتاب ، وأكرم الصفايا أشدّها وهماً إلى أولادها ، وأكرم الإبل أشدّها حنيناً إلى أوطانها ، وأكرم المهاري أشدّها ملازمة لأمتها ، وخير الناس ألفهم للناس ، وقال آخر من أمارات العاقل بیره لإخوانه - وحينئذ إلى أوطانه - ومداراته لأهل زمانه ، واعتلّ أعرابي في أرض غربة فقيل له ما تشتهي - فقال حَسِل - (١) فلاة وحَسَو - (٢) قِلات (٣) ؛ وسئل آخر فقال : مَخْضاً (٤) رويّاً - وضبّاً

-
- (١) الحسل : ولد الضب حين يخرج من بيضه .
(٢) حسي زيد المرق يحسوه حسوا شربه شيئاً بعد شيء وحسي الطائر الماء تناوله بمنقاره .
(٣) القلات جمع قلت بالفتح وهي النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء .
(٤) المخض والمخيض ما مخض من اللبن وأخذ زبده .

مشويا ؛ وسئل آخر فقال : ضباً عنيماً أعور ؛ وقالت العرب
حِماك أحمي لك - وأهلك أحفي بك ؛ وقيل الغربة كربة
والقيلة ذلة . وقال :

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبدأ
إنَّ الغريبَ ذليلٌ حيثما كانا

وقال آخر لا تنهض عن وكرك فتسغصك الغربة
- وتضيمك الوحدة ؛ وقال آخر لا تجف أرضاً بها قوابلك (١)
- ولا تشكُ بلداً فيه قبائلك ؛ وقال أصحاب القيافة (٢) في
الاسترواح : إذا أحست النفس بمولدها تفتحت مسامها
فعرفت النسيم ؛ وقال آخر يحن اللبيب إلى وطنه - كما يحن
النجيب (٣) إلى عطنه ؛ وقال كما أن لحاضنتك حقَّ لبنها -
كذلك لأرضك حقُّ وطنها ؛ وذكر أعرابي بلده فقال رملة
كنتُ جنينَ رُكامها - ورضيعَ غمامها - فحضنتني أحشاؤها

-
- (١) القوابل جمع قابلة وهي المرأة التي تأخذ الولد عند الولادة .
 - (٢) القائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه والجمع القافة ويسمى فعله بالقيافة .
 - (٣) النجيب من الأبل القوي الخفيف السريع .

وأرضعتني أحساؤها^(١) ؛ وشبّهت الحكماءُ الغريبَ باليتيم
اللّطيم^(٢) الذي شكّل^(٣) أبويّه - فلا أم ترأّمه^(٤) ولا
أبَ يحدّب^(٥) عليه ؛ وقالت أعرابية إذا كنت في غير أهلِكَ
فلا تنس نصيبك من الدّل ؛ وقال الشاعر :

لعمري لرهطُ المرءِ خير بقيّة
عليه وإن عالتوا به كل مَرَكَب

إذا كنت في قوم عداءَ لست منهم
فكلّ ما عُلِفَت من خبيث وطيب^(٦)

(١) الاحساء جمع حسى وهي سهل من الارض يستنقع فيه الماء .

(٢) اللطيم الذي يموت أبواه .

(٣) الشكل فقدان المرأة ولدها .

(٤) رئمت الناقة الولد عطفت عليه .

(٥) يحدب عليه يعطف عليه .

(٦) قال ابن السكيت قوم عدا غرباء وأنشد البيت قال ولم

يأت فعل في الصفات غير هذا وهو أيضا مذهب سيبويه

وهم اسم للجميع وقال ابن السيد في الاقتضاب هذا

البيت لزرافة بن سبيع الاسدي فيما ذكر يعقوب وذكر

الجاحظ انه لخالد بن نضلة الجحواني من بني أسد -

والعدى الغرباء والعدى أيضا الاعداء - والأكل والعلف

ههنا مثلان مضروبان للموافقة وترك المخالفة - وكان

هذا الشاعر قد راغم قومه وعتب عليهم ثم جاور =

وفي المثل أَوْضَحَ مِنْ مِرَاةِ الْغَرِيبَةِ - وذلك أن المرأة إذا كانت هَدِيًّا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا تَتَفَقَّدُ مِنْ وَجْهٍهَا وَهَيْئَتِهَا مَا لَا تَتَفَقَّدُهُ وَهِيَ فِي قَوْمِهَا وَأَقَارِبِهَا - فَتَكُونُ مِرَاةً مَجْلُوءَةً تَتَعَهَّدُ بِهَا أَمْرَ نَفْسِهَا وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

لَهَا أُذُنٌ حَشْرٌ وَذِفْرَى أُسَيْلَةٌ
وَخَدٌ كَمِرَاةِ الْغَرِيبَةِ أُسْجَحٌ (١)

وكانت العرب إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة

= غيرهم - وندم على مفارقة قومه - ولذلك قال قبل هذا البيت :

لعمري لقوم المرء خير بقية
عليه وان عالوا به كل مركب
من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى
جزيل ولم يخبرك مثل مجرب
تبدلت من دودان نصرا وارضها
فما ظفرت كفي ولا طاب مشربي

ثم أفاض في شرح البيت .

(١) الحشر ما لطف من الآذان - والذفرى من الحيوان العظم الشاخص خلف اذن - والاسيل من الخدود المسترسل - وسجح الخد كفرح سهل ولان وطال في اعتدال وقل لحمه وقال في أساس البلاغة وجه أسجح مستوي الصورة ورجل أسجح الخدين وقد سجح قال ذو الرمة وأنشد البيت .

لها رملاً وعَفْرًا (١) تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع
أنشد لبعض بني ضبة :

نسير على علمٍ بكنهه مسيرنا
بعفّةٍ زاد في بطون المزاود (٢)

ولا بد في أسفارنا من قبيصة
من التراب نُسّقهاها لحب الموالد (٣)

وقال آخر أرض الرجل أوضح نسبه - وأهله أحضر
شبهه (٤) ؛ وقيل لأعرابي كيف تصنع في البادية إذا اشتد
لقيظ وانتعل كل شيء ظلّه (٥) ، قال وهل العيش إلاّ ذلك

-
- (١) العفر بفتح العين التراب .
(٢) المزاود جمع مزود وهو ما يجعل فيه الزاد . العفة هي بقية اللبن في الضرع بعد أن يحلب أكثر ما فيه وكذلك العفافة ثم استعيرت للقليل من الزاد .
(٣) القبيصة : التراب المجموع وما تناولته بأطراف أصابعك - قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كانت الأعراب إذا سافرت حملت معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحه وتطرّحه في الماء إذا شربته وكذلك كانت فلاسفة اليونان تفعل وأنشد البيتين المذكورين .
(٤) النشب بفتح النون : المال والعقار .
(٥) يقولون جاء فلان حين انتعل كل شيء ظلّه أي حين دخل وقت الزوال .

يمشي أحدنا ميلاً فيَرفَضُ عرقاً - ثم يَنصبُ عَصاه -
ويُلقي عليها كساءه - ويجلس في فيه يكتال الريح فكأنه
في إيوان كِسرى ؛ وقيل لأعرابي ما أصبركم على البدو - قال
كيف لا يصبر من وطأوه الأرض - وغِطاؤه السماء -
وطعامه الشمس - وشرابهُ الريح ، والله لقد خَرَجنا في
أثر قوم قد تقدّمونا بمراحل ونحن حفاة - والشمس في قُلَّةِ
السماء - حيث انتعل كل شيء ظِلَّهُ - وإنهم لأسوءُ حالاً
منّا - إن مهادهم للعَفَر - وإنَّ وسادهم للْحَجَر - وإن
شعارهم للهواء - وإنَّ دثارهم للخِواء (١)

وحدثني التَّوَزِيُّ عن رجل من عُرَيْينَه - قال حدثني
رجل من بني هاشم - قال قلت لأعرابي من بني أسد من أين
أقبلت - قال من هذه البادية - قلت وأين تسكن منها - قال :
مَسَاقِطِ الحِمَى حِمَى ضَرِيَّة (٢) بأرض لَعَمْرُ الله ما نريد بها

(١) الشعار : الثوب الذي يلي الجسد لانه يلي شعره -
والدثار : الثوب فوق الشعار - والخواء بالمد الهواء
بين الشئين - والخوى بالقصر خلو الجوف من الطعام
ويمد .

(٢) ضرية بئر بأرض نجد وقد الم في معجم البلدان بهذه
القصة .

بدلاً ولا نبغي عنها حولاً - قد نفتحها الغدوات وحفتها
 الفلوات - فلا يملو لِحْ ماؤها - ولا يحمى ترابها - ولا
 يَمَعَرُ جنابها (١) - ليس فيها أذى ولا فِدَى - ولا أنين
 ولا حُمَى ، فنحن بأرفه عيش وأرفع نعمة ، قلت فما
 طعامكم فيها - قال بخ بخ عيشنا والله عنس يُعَلَّلُ جاذِبُهُ -
 وطعامنا أطيْبُ طعام وأهنأه - الهبيدُ (٢) والضباب (٣)
 واليرابيعُ (٤) والقنَافِدِ والحيات - وربما والله أكلنا القَد (٥)
 واشتوينا الجِلْد - فلا نعلم أحداً أخصبَ منا عيشاً ،
 فالحمد لله على ما بسط من السعة ورزق من الدعة - أو ما
 سمعت قول قائلنا وكان والله عالماً بلذيقه العيش .

إذا ما أصبنا كل يوم مُذِيقَةً
 وخمسِ تَمِيرَاتٍ صغارٍ كوانز (٦)

-
- (١) معرت الارض معرا قل نباتها - والجناب ما قرب من
 محلة القوم .
 (٢) الهبيد الحنظل او حبه وهبده كسره وطبخه .
 (٣) الضباب جمع ضب وهو حيوان معروف .
 (٤) اليرابيع جمع يربوع وهو حيوان يسكن بطن الارض
 ويتخذ فيه كوى فاذا طلب من أحدها خرج من غيره .
 (٥) القد بوزن فلس جلد السخلة وكانوا يأكلونه في الجذب .
 (٦) المذيقة تصغير مذقة وهي الطائفة من المذيق وهو اللبن
 الممزوج بالماء - والكوانز المكتنزة وهي المجتمعة الصلبة .

فنحن ملوك الأرض خصباً ونعمةً
ونحن أسود الغاب عند الهزاهز (١)

وكمٍ مُتَمَنَّ عيشنا لا يناله
ولو ناله أضحى به حق فائز

ولهذا خبّر "طويل" وصف فيه نوقاً أضلّها - واقتصرنا
منه على ما وصف من قناعاته بوطنه؛ قال الهاشمي فلما فرغ
من نعت نوقه قلت له هل لك في الغداء - قال إني والله غاوا
غياب (٢) لاصق القلب بالحجاب - مالي عهد بمضاغ إلا
شيلو (٣) يربوع وجد معمةً فانسلت مني فأخذت

(١) الهزاهز الشدائد ولم يسمع لها بواحد - وهنا فائدة
مهمة : وهي أن ما بعد إذا تكون زائدة فاذا قيل إذا ما غضبت
فلا تخرج عن الحد أي إذا غضبت - فمعنى قوله إذا ما
أصبنا أي إذا أصبنا وقد استعمل الناس في العصر
المتأخرة ما بعد إذا للنفي فصاروا إذا رأوها في كلام
العرب يظنونها للنفي وهو خطأ فاذا أريد النفي بعد إذا
وجب أن يؤتى بلم تقول إذا لم يجيء زيد فارسل له
خبراً ولا تقول إذا ما جاء زيد فينبغي الانتباه
لذلك .

(٢) كذا في الاصل .

(٣) الشلو : العضو من أعضاء اللحم .

بِنَافِقَائِهِ وَقَاصِعَائِهِ وَدَامَائِهِ وَرَاهِطَائِهِ (١) ثُمَّ تَنَفَّضْتَهُ
فَأَخْرَجْتَهُ - وَلَا وَاللَّهِ مَا فَرَحْتُ بِشَيْءٍ فَرِحِي بِهِ - فَتَلَقَانِي
رُوَيْعِ بَيْطُنِ الْخُرَجَاءِ (٢) قَدْ نُؤِيرَةٌ تَخْبُو طَوْرًا وَتَشْبُ
أُخْرَى فَدَسَسْتُهُ فِي إِرْتِهِ (٣) فَخَمِدْتُ نُؤِيرَتَهُ - وَلَا وَاللَّهِ
مَا بَلَغَ نَضِجَهُ حَتَّى اخْتَلَسَ الرَّوَيْعِي مِنْهُ - فَغَلَبَنِي عَلَى رَأْسِهِ
وَحَوْشَهُ وَصَدْرَهُ وَبَدَنَهُ - وَبَقِيَ بِيَدِي رِجْلَاهُ وَوَرِكَاهُ وَفَقَرْتَا
صَلْبَهُ فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ ، فَاعْتَبَقْتُهَا عَلَى نَكَظٍ
مُنْكَظٍ وَيَوْضٍ بَايِظٍ عَنِ عِرَاكِهِ أَيَّامِي (٤) غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي
عَلَيْهِ - فَذَلِكَ وَاللَّهِ عَهْدِي بِالطَّعَامِ - وَإِنِّي لَدُو حَاجَةٌ إِلَى
غِذَاءِ أَنْوَاهِ بِهِ فُوَادِي وَأَشْدُّ بِهِ آدِي (٥) - فَقَدْ وَاللَّهِ بَلَغَ مِنِّي
الْمَجْهُودُ ، وَأَدْرِكُ مِنِّي الْمَجْلُودُ (٦) ؛ يَصِفُ هَذَا الْبُؤْسَ

(١) قد فسر المصنف هذه الأربعة في كتاب الحيوان فقال
هي أبواب قد اتخذها اليربوع لحفירתه فمتى أحس بشيء
خالف تلك الجهة إلى الباب .

(٢) الخرجاء : ماءة احتفرها جعفر بن سليمان قريبا من
الشجى بين البصرة وحفر أبي موسى في طريق الحاج
من البصرة .

(٣) الآرة : موضع النار .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) الآد : الصلب والقوة .

(٦) المجلود : القوة والصبر .

والجهد ، ويتحمل هذه الفاقة ويصبر على الفقر ، قناعة
بوطنه ، وحباً لعطنه ، واعتداداً بما وصف من رفاغة عيشه (١) .

وحدثنا سليمان بن مَعْبَد أن الوليد بن عبد الملك أراد
أن يُرسل خيله - فجاء أعرابي له بفرس أنثى - فسأله أن
يُدخلها مع خيله - فقال الوليد لقهرمانه (٢) أَسَيْلَمَ بن
الأحنف كيف تراها يا أَسَيْلَمَ - فقال يا أمير المؤمنين
حجازية - لو ضمتها مضمارك ذهبت ، قال الأعرابي أنت
والله منقوص الاسم (٣) أعوجُ اسم الأب - فأمر الوليدُ

(١) رفاغة العيش : اتساعه .

(٢) القهرمان : أمين الدخل والخرج وهو معرب .

(٣) يريد أن اسمه مصغر والتصغير في الغالب يدل على

النقص ، وهنا أمر وهو أن كل اسم في أوله همزة

وصل إذا دخلت عليه أل نقلت حركتها إلى اللام ثم

لحقها في الحذف همزة أل لأن همزة الوصل إذا تحرك

ما بعدها سقطت للاستغناء عنها فتبقى تلك الكلمة

مجردة عن تينك الهمزتين نحو الاسم والابن والانقباض

والاجتماع ونحو ذلك وقد وقع هنا وهم لكثير ممن لم

يُمكن النظر في الصرف فتراه ينطق بالهمزتين معا في

مثل : الاقتصاد مطلوب . وبالهمزة الثانية في مثل :

يطلب الاقتصاد . وهو خطأ بين وقد وقع هذا النوع في

الكتاب العزيز في قوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد

الايمان) فالاسم هنا كما لا يخفى مجرد عن الهمزتين

وقد وقع مثل ذلك في الشعر قال كشاجم :

بإدخال فرسه - فلما أُجريت الخيلُ سبق الأعرابي على فرسه ،
فقال الوليد أواهبُها لي أنت يا أعرابي ، فقال لا والله - إنها
لقديمة الصُّحبة - ولها حق - ولكن أحملك على مُهْرٍ لها
سبق عاماً أوّل وهو رابض - فضحك الوليد - وقال أعرابي
مجنون ، فقال وما يضحككم ؟ سبقت أمه عاماً أوّل وهو

= عش سالما لا اختراع مجد فانه نعم الاختراع
فانظر كيف حذف الهمزتين من الاختراع وقد وقع في
هذه القصيدة كثير من هذا النوع غير أنه خالف في قوله
من قصيدة أخرى :

تأخرت حتى كددت الرسول وحتى سئمت من الإنتظار
فكأنه اضطر الى ذلك وقال المتنبي :

يوسطه المفاوز كل يوم طلاب الطالبين لا الانتظار
فقد حذف الهمزتين في الانتظار وحذف الالف من لا -
فينبغي الانتباه لمثل ذلك وقد وقع في همزة الوصل
خطأ من وجه آخر وهو أن بعضهم يضعون عليها علامة
همزة القطع وهو خطأ ولو وقعت في الابتداء لأنه يكفي
إذا أريد تحريكها أن يوضع عليها حركتها نحو أغزي
يا هند وأنا أغزي القوم - وأما همزة البتة في مثل
قولهم لا أفعله البتة فهي بلا ريب همزة وصل وقد
أغرب بعضهم فقال أنها همزة قطع على خلاف القياس
قال الحافظ بن حجر ولم أر ما قاله في كلام أحد من
أهل اللغة وقد ناقشه في ذلك بعض من مرن على
المناقشة غير أنه لم يأت بشيء يعول عليه أو يركن اليه .

في بطنها ، فاستظرفه واحتبسه عنده - فمرض - فبعث إليه
الوليد بالأطباء - فأنشأ يقول :

جاء الأطباء من حمص تخالهم
من جهلهم أن أدوى كالمجانين

قال الأطباء ما يشفيك قلت لهم
دُخانُ رمثٍ من التسرير يشفيني (١)

إنني أحنّ إلى أدخان محتطبٍ
من الجُنيّةِ جزلٍ غيرِ موزون (٢)

فأمر الوليد أن يُحمل إليه سليخة (٣) من رمث فوافوه
وقد مات ، فهو عند الخليفة وبيد ليس في الأقاليم أريفُ منه
ولا أخصبُ جناباً ، فحن إلى سليخة رمث حياً للوطن ؛

وحكى أبو عبد الله الجعفري عن عبد الله بن إسحاق
الجعفري - قال أمرت بصهريج (٤) لي في بستان عليه نخل

-
- (١) الرمث : مرعى للابل من الحمض .
(٢) كذا في الاصل وقد ألم في معجم البلدان بالقصة والابيات
فارجع اليه في التسرير والجنينة .
(٣) السليخة من الرمث ما ليس مرعى .
(٤) الصهريج كقنديل حوض يجتمع فيه الماء وهو معرب .

مُطِيلٌ أَنْ يَمَلَأَ فَذَهَبَتْ بِأُمِّ حَسَانَةَ الْمُرَيَّةَ وَابْنَتَهَا وَهِيَ زَوْجَتِي
 - فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت
 رجليها في الماء - فقلت لها ألا تطوفين معنا على هذا النخل
 لنَجِّنِي ما طاب من ثمره - فقالت ههنا أعجب إليّ . فدرنا
 ساعة وتركناها ثم انصرفنا وهي تخضخض رجليها في الماء
 وتحرك شفثيها - فقلت يا أم حسانة لا أحسبك إلا وقد قلت
 شعراً ، قالت أجل ثم أنشدتني .

أَقُولُ لِأَدْنَى صَاحِبِي أُسْرُهُ
 وَلِلْعَيْنِ دَمْعٌ يَحْدَرُ الْكُحْلَ سَاكِبَهُ

لَعَمْرِي لِنَهْيٍ بِاللَّوِي نَارِحُ الْقَدَى
 نَقِيُّ النِّوَاحِي غَيْرُ طَرَقٍ مِشَارِبِهِ (١)

بِأَجْرَعٍ مِجْرَاعٍ كَأَنَّ رَجَاجَهُ
 سَخَابٌ مِنَ الْكَافُورِ وَالْمَسْكَ شَائِبِهِ (٢)

- (١) النهي بالفتح وهو بالكسر في لغة أهل نجد - الغدير أو شبهه والجمع أنه وأنهاء ونهي ونهاء - والطرق بالفتح ماء السماء الذي تبول فيه الأبل وتبعر .
- (٢) كذا في الأصل ولم يذكر هذا البيت من ذكر الأبيات المذكورة فليبحث عنه - والاجرع والجرعاء أرض حزنة يعلوها رمل والجمع الاجراع - والسخاب قلادة من قرنفل وسك ومحلب ليس فيه جوهر والشائب المخالط .

أحب إلينا من صهاريج ملئت
للعب فلم تملح لدي ملاعبه

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبتة بالعشي هواضبه (١)

وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه (٢)

وأنشد أبو النصر الأسدي :

أحب الأرض تسكنها سليمي
وإن كانت بواديها الجدوب

وما عهدي بحب تراب أرض
ولكن من يحل بها حبيب

-
- (١) هضبت السماء القوم مطرتهم مطرا شديدا .
(٢) الجنائب جمع جنوب وهي ريح تقابل الشمال - وقد
زاد في محاضرات الراغب بعد هذه الايات بيتين وهما:

فاقسم لا أنساه ما دمت حية
وما دام ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسقي لوعة
بذكراه حتى يترك الماء شاربته

وأُنشدني حماد بن اسحق الموصلي :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ صَارَةَ
إِلَى غُظْفَانَ أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا (١)

بِلَادِ بِهَا نَيْطَتْ عَلِيَّ تَمَائِمِي
وَأَوَّلَ أَرْضِ مَسَّ جَسْمِي تَرَابُهَا (٢)

قال ولما حُمِلت نائلة بنت الفرافصة الكلبية إلى عثمان
ابن عفان رضي الله عنه كَرِهت فراق أهلها - فقالت لضب
أخيها :

أَلَسْتَ تَرَى يَا ضَبُّ بِاللَّهِ أَنِّي
مُرَافِقَةٌ نَحْوَ الْمَدِينَةِ أَرْكُبُ

-
- (١) الصوب : نزول المطر .
(٢) قال المبرد في الكامل يقال فلان عقت تميمته ببلد كذا
أي قطعت عنه في ذلك الموضع - قال الشاعر :
ألم تعلمي يا دار بلجاء انني
إذا اخصبت أو كان جدبا جنابها
أحب بلاد الله ما بين مشرف
الي وسلمي أن يصب سحابها
بلاد بها عق الشباب تميمتي
وأول أرض مس جلدي ترابها
وقوله ما بين مشرف الي وسلمي قد روي على أوجه
شتى .

أما كان في أولاد عوف بن عامرٍ
لك الويل ما يُغني الحباءَ المُطنبًا

أبى الله إلا أن أكونَ غريبةً
بيثربَ لا أمًّا لديّ ولا أبا

قال وزوجت من أبان في كلب امرأة - فنظرت ذات
يوم إلى ناقة قد حنت فذكرت بلادها - وأنشأت تقول :

ألا أيها البكرُ الأبانيُّ إنني
وإياك في كلب لمغتربان (١)

تحنّ وأبكي ذا الهوى لصباة
وإنّا على البلوى لمصطحبان

وإنّ زماناً أيها البكر ضمّني
وإياك في كلب لشرّ زمان

وقال آخر :

ألا يا حبّدا وطني وأهلي
وصحبي حين يُدّكر الصّحاب

(١) البكر بالفتح : الفتى من الابل والانشى بكرة .

وما عَسَلُ بِيَارِدِ مَاءِ مُزْنٍ
عَلَى ظَمَأٍ لَشَارِبِهِ يُشَابُ

بِأَشْهَى مِنْ لِقَائِكُمْ إِلَيْنَا
فَكَيْفَ لَنَا بِهِ وَمَتَى الْإِيَابُ

وَأَنْشُدُ الْغَنَوِي لِبَعْضِ الْهَذَلِيِّينَ :

وَأَرَى الْبِلَادَ إِذَا سَكَنْتَ بِغَيْرِهَا
جَدْبًا وَإِنْ كَانَتْ تَطِيلُ وَتُحْبَبُ

وَأَرَى الْعَدُوَّ يُحْبِبُكُمْ فَأُحِبُّهُ
إِنْ كَانَ يُنْسَبُ مِنْكُمْ أَوْ تُنْسَبُ

وَأَرَى السَّمِيَّةَ بِاسْمِكُمْ فَتُرُدُّهَا
حُبًّا إِلَى

(١) كذا في الاصل وقد وجدنا الابيات في ديوان أبي ذؤيب
الهدلي على هذا الوجه :

واری البلاد اذا سكنت بغيرها
جدبا وان كانت تطل وتخصب

ويحل أهلي بالمكان فلا أرى
طرفي لفيرك مرة يتقلب =

قال ومن هذا أخذ الطائي قوله :

كم منزل في الأرض يألفه الفتي
وحنينه أبداً لأول منزل

وأشده أبو عمرو البجلي :

تمتّع من شميمِ عرارِ نجد
فما بعدَ العشيّةِ من عرار (١)

ألا يا حبّذا نَفحاتُ نجد
ورياً روضه غبّ القطار (٢)

= وأصابع الواشين فيك تجملاً
وهم علي ذوو ضغائن دؤب

وتهيج سارية الرياح من ارضكم
فأرى الجناب لها يحل ويجنب

وأرى العدو يحبكم فأجبه
ان كان ينسب منك او لا ينسب

(١) العرار : بهار البر وهو نبت طيب الريح الواحدة عرارة

وقد أورد في الحماسة قبل هذا البيت قوله :
أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار

(٢) الري هنا الرائحة - وغب بعد - والقطار جمع قطر
وهو المطر .

وعيشك إذ يحلُّ القومُ نجداً
وأنتَ على زمانك غيرُ زاري^(١)

شهورٌ ينقضين وما شعرنا
بأنصافٍ لهنَّ ولا سرار^(٢)

فأمّا ليلهنَّ فخيرٌ ليلٍ
وأقصرُ ما يكون من النهار^(٣)

وقال آخر :

ألا هل إلى شمِّ الخزامى ونظرةٍ
إلى قرقرى قبل الممات سبيل^(٤)

فأشربَ من ماء الحُجَيْلاء شربةً
يُداوي بها قبل الممات عليل^(٥)

-
- (١) زاري عائب يقال زرى عليه فعله اذا عابه .
 - (٢) الانصاف جمع نصف وسرار الشهر آخر ليلة منه .
 - (٣) وفي رواية وأنضر - ورواية وأطيب .
 - (٤) الخزامى نبت من نبات البادية طيب الرائحة وقرقرى أرض باليمامة فيها قرى وزروع ونخيل .
 - (٥) الحجىلاء اسم بئر باليمامة .

فيا أثلاث القاع قلبي مُوكَّلٌ
بكنٌّ وجدوى خير كنَّ قليل (١)

ويا أثلاث القاع قد ملَّ صُحْبتي
مسيرى فهل في ظِلِّكُنَّ مقيل (٢)

أريدُ انحداراً نحوها فيسرُدني
ويمعني دينٌ عليَّ ثقيل

أحدثُ نفسي عنك أن لستُ راجعاً
إليك فحزني في الفؤاد دَخيل (٣)

وأنشد للمجنون :

إلى عامرٍ أصبو وما أرض عامرٍ
هي الرملةُ الوعساء والبلدُ الرحبُ (٤)

-
- (١) الاثل شجر وهو نوع من الطرفاء الواحدة اثلة والجمع اثلات والقاع المستوى من الارض والقيعة مثل القاع وبعضهم يقول هو جمع .
 - (٢) الصحبة بالضم جمع صاحب . والمقيل القيلولة .
 - (٣) الدخيل الداخل في أعماق البدن وهذه الابيات ليحيى ابن طالب كما في معجم البلدان .
 - (٤) الوعساء رابية من رمل لينة تنبت احرار البقول وموضع معروف بين الثعلبة والخزيمية .

معاشر بيض لو وردت بلادهم
وردت بحوراً ماؤها للندا عذب

إذا ما بدت للناظرين خيامهم
فشم العتاق القب والأسل القضب^(١)

وأنشدنا المازني

إقرأ على الوشل السلام وقل له
كل الموارد منذ هجرت ذميم^(٢)

جبل ينيف على الجبال إذا بدا
بين الغدائر والرّمال مُقيم

تسري الصبا فتبيت في ألواذه
ويبيت فيه من الجنوب نسيم^(٣)

-
- (١) العتاق جمع عتيق يقال فرس عتيق مثل كريم وزنا
ومعنى والقب جمع اقب وهو الضامر البطن والاسل
الرماح والقضب اللطاف الدقاق .
- (٢) الوشل اسم جبل عظيم بناحية تهامة فيه مياه عذبة .
- (٣) الالواذ جمع لوذ وهو جانب الجبل وما يطيف به
ومنعطف الوادي .

سَقِيًّا لظِلِّكَ بِالْعِشِيِّ وَبِالضُّحَى
وَلِيَبْرِدَ مَائِكَ وَالْمِيَاهُ حَمِيمِ

لو كنت أملك منع مائك لم يذق
ما في قلاتك ما حيث لئيم (١)

وقالت امرأة من عقيل :

خليليَّ من سكان ماوان هاجني
هبوب جنوب مرَّها ونِسَامُهَا (٢)

فلا تسألاني ما ورائي فإني
بمنزلة أعيان الطيب سقامها

وقال آخر :

ألا ليت شعري والحوادثُ جَمَّةٌ
متى تجمعُ الأيامُ يوماً لنا الشَّملاً

وكلَّ غريب سوف يُمسي بذلَّة
إذا بان عن أوطانه وجفا الأهلاً

(١) القلت مؤنثة وهي نقرة في الجبل تمسك الماء ان يفيض
والجمع قلات قاله في المخصص وأنشد هذا البيت .
(٢) ماوان فيه ماء بين النقرة والربذة .

وقال آخر :

ألا ليت شعري يجمع الدهر بيننا
بصحراء من نجران ذات ثرى جعد (١)

وهل ينفُضَنَّ الرِّيحُ أفنانَ لِمَتِّي
على لاحقِ الرجلين مضطمرٍ ورْد (٢)

وهل أردنَّ الدهرَ حَسِيبي مُزاحمٍ
وقد ضربته نَفحة من صبا نجد (٣)

وقال آخر :

وأنزلني طولُ النوى دارَ غربة
إذا شئتُ لاقيتُ امرءاً لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سَجِيَّةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقله

-
- (١) نجران اسم موضع - وتراب جعد أي ند .
(٢) اللمة بالكسر الشعر يلثم بالمنكب وأراد بافنان لمتته
خصلها واستعار لها أفنان الشجر والمضطمر الضامر
يقال ضمير الفرس واضطمر إذا رق وقل لحمه - والورد
من الخيل ما بين الكميت إلى الأشقر .
(٣) مزاحم : اسم موضع .

ولو كنت في قومي وجُلَّ عَشيرتي
لألفيتُ فيهم كلَّ خِرْقٍ أو اصله (١)

وأنشد لذي الرمة :

إذا هبَّتْ الأرواحُ من نحو جانب
به أهلٌ مي هاجَ قلبي هبُّوبها (٢)

هوَى تدرِفُ العينان منه وإنما
هوَى كلَّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها (٣)

وقال أبو عثمان رأيت عبداً أسود حبشياً لبني أسد -

(١) وقع في بعض كتب الأدب الشطر الأخير هكذا - للاقت
فيهم أخرقاً لا أوصله - والأخرق الذي إذا عمل عملاً
لم يرفق فيه - والخرق بالكسر الفتى الحسن الكريم
الخليقة .

(٢) الأرواح جمع ريح وأما جمعها على أرياح فقد أنكره
الحريري في كتاب درة الفواص في أوهام الخواص حيث
قال ويقولون هبت الأرياح مقايضة على قولهم رباح
وهو خطأ بين ووهم مستهجن - والصواب أن يقال
هبَّت الأرواح كما قال ذو الرمة وأنشد البيتين - غير
أن ابن هشام قال في شرح « بانت سعاد » : من العرب
من يقول أرياح كراهة الاشتباه بجمع روح كما قالوا في
جمع عيد أعياد كراهة الاشتباه بجمع عود - قال السهيلي
أن رباحاً وأرياحاً لغة لبني أسد .

(٣) ذرفت عينه سال دمعها .

قديم من شقّ اليمامة - فصار ناطوراً ، وكان وحشياً مجنوناً
لطول الغربة مع الإبل ، وكان لا يلتقي إلاّ أكرة^(١) فلا
يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رأني سکن إليّ
وسمعته يقول : لعن الله أرضاً ليس بها عرف^(٢) قاتل الله
الشاعر حيث يقول :

حرّ الثرى مُستعربُ التراب^(٣)

أبا عثمان ! إن هذه العُريب في جميع الناس كمقدار
القُرحة في جلد الفرس^(٤) فلولا أن الله رقّ عليهم^(٥)
فجعلهم في حشاه لطمست هذه العجم آثارهم ؛ أتري

(١) أكرت الأرض حرثتها واسم الفاعل أكار للمبالغة
والجمع أكرة كأنه جمع آكر .
(٢) كذا في الأصل وهي مصحفة .

(٣) أرض حرة لاسبخة فيها وطين حر لا رمل فيه ورملة
حرة طيبة النبات ، هو من العرب العرباء والعاربة وهم
الصرحاء الخالص - وفلان من المستعربة وهم الدخلاء
فيهم وقال جندل بن المثني الطهوي .
جعد الثرى مستعرب التراب - أي بعيد من أرض
الأعاجم .

(٤) القرحة بالضم بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة .
(٥) الأولى ان يقال في مثل هذا الموضع رأف بهم ونحو ذلك
الا ان الاعراب ومن نحا نحوهم لا ينتبهون لمثل ذلك .

الأعيارَ إذا رأت العِتاقَ (١) لا ترى لها فضلاً ، والله ما أمَرَ
الله نبيهُ صلى الله عليه وسلم بقتلهم إذ لا يدينون بدين إلا
لضنّه بهم (٢) ولا ترك قبُولَ الجزية منهم إلا تنزيهاً لهم ؛
وقيل لأعرابي ما السرور فقال أوبّةٌ بغير خيبة - وألفة
بعد غيبة ؛

وقيل لآخر : ما السرور ؟ قال غيبة تفيد غنى ، وأوبّة
تُعقِبُ مني ، وأنشأ يقول :

وكنت فيهم كممطرٍ ببلدته
يسرُّ أنْ جمعَ الأوطانَ والمطرا

وأحسن ما سمعنا في حب الوطن وفرحة الأوبّة قوله :
وباشرتُها فاستعجلت عن قناعها
وقد يستخف (الطامعين) المباشر

(١) الأعيار جمع عير بالفتح وهو الحمار والعناق كرام الخيل .

(٢) الضن والضمنة بالكسر والضمنانة بالفتح البخل . مراد الأعرابي كلامه أن الله كرم العرب وأراد بهم خيراً إذ جعلهم بمكان يأمنون به على قلتهم من الإعاجم على كثرتهم - ألزمهم الإسلام ولم يقبل منهم الجزية مع البقاء على الكفر .

مشمرة عن ساق حولاء جسرة
تجاري بنيتها مرة وتحاضر

وخببرها الوراد أن ليس بينها
وبين قرى نجران والدرب صافر (١)

فألت عصاها واستقرت بها النوى
كم قر عيناً بالإياب المسافر (٢)

وقيل لبعض الأعراب ما الغبطة؟ - قال : الكفاية مع
لزوم الأوطان ، والجلوس مع الإخوان - قيل له فما الذلة؟

(١) في رواية الرواد - في رواية سائر .
(٢) كذا في الاصل وقد ذكر في بعض كتب الادب ان البيت
الآخر للمعقر بن أوس حماد البارقي من قصيدة له
فنظرنا في القصيدة في كتاب الاغاني فلم نجد فيها شيئاً
من الابيات السابقة وأول القصيدة فيه :

أمن آل شعفاء الحمول البواكر
مع الليل ان زالت قبيل الاعاصر
وحلت سليمى في هضاب وايقة
فليس عليها يوم ذلك قادر

وألت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عيناً بالإياب المسافر
وصبحها أملاكها بكتيبة
عليها اذا أمست من الله ناظر

قال : التنقل في البلدان – والتنحي عن الأوطان .

وقال آخر :

طلب المعاش مفرقاً بين الأحبة والوطن
ومصير جلد الرجا ل إلى الضراعة والوهن
حتى يقاد كما يقا دُ النضو في ثني الرسن
ثم المنية بعده فكأنه ما لم يكن

ووجدنا من العرب من كان أشرف في نفسه وأفخر في
حسبه – ومن العجم من كان أطيّب عنصراً وأنفَسَ جوهرأ
– أشدُّ حنيناً إلى وطنه ونزاعاً إلى تربته . وكانت الملوكُ على
قديم الدهر لا تؤثر على أوطانها شيئاً ؛ وحكى الموبد^(١)
انه قرأ في سيرة اسفنديار بن بشتاسف بن لهراسف بالفارسية –
انه لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر اعتل بها فقيل
له ما تشتهي قال شمة من تربة بلخ وشربة من ماء وادياها ؛
واعتل سابور ذو الاكتاف^(٢) بالروم – وكان مأسوراً في

(١) الموبد بضم الميم وفتح الباء فقيه الفرس وحاكم المجوس
والجمع موابدة والهاء للعجمة .

(٢) سابور معرب شاهبور تكلموا به قديماً وهو اسم ملك
من ملوك الفرس وقد عربه الاعشى بشاهبور حيث قال :
أطاف بها شاهبور الجنو د حولين تضرب فيها القدم
والقدم جمع القدوم التي ينحت بها .

القد^(١) فقالت له بنت ملك الروم وقد عشقته ما تشتهي
مما كان فيه غذاؤك - قال شربة من ماء دجلة وشمة من
تربة إصطخر - فغربت عنه أياماً ثم أتته يوماً بماء الفرات
وقبضة من تراب شاطئه - وقالت هذا من ماء دجلة - وهذه
من تربة أرضك - فشرب واشتم من تلك التربة فأفاق من
مرضه ؛ وكان الاسكندر الرومي^(٢) جال البلدان وأخرب
إقليم بابل وكثر الكنوز وأباد الخلق فمرض بحضرة^(٣) بابل

-
- (١) القد سير من الجلد يشد به الاسير قال المتنبي :
وغيظ على الايام كالنار في الحشا
ولكنه غيظ الاسير على القد
- (٢) الاسكندر معرب الكسندر وأل فيه من أصل الكلمة غير
انهم نظروا اليها نظرهم الى أل التي للتعريف وهذا
الذي حمل بعض الشعراء على حذفها كما تحذف من
الحسن والعباس فقال اسكندر - قال ابو تمام :
من عهد اسكندر وقبل ذلك قد
شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
قال التبريزي المتعارف بين الناس ان الاسكندر بالالف
واللام فحذفوهما منه - واما قوله الرومي فهو من
قبيل المجاز .
- (٣) حضرة الرجل قربه وكانت في الاصل حظيرة - قال في
النهاية في اثر « لا يلج حظيرة القدس مدمن خمر » أراد
بحظيرة القدس الجنة وهي في الاصل الموضع الذي
يحاط عليه لتأوي اليه الغنم والابل ليقيهما البرد
والريح .

فلما أشفى (١) أوصى إلى حكمائه وزرائه أن تحمل رمثته (٢) في تابوت من ذهب إلى بلده حباً للوطن .

ولما افتتح وهرز بن شيرزاد اليمن وقتل ملك الحبشة المتغلب على اليمن أقام بها عاملاً لأنوشروان (٣) فبنى نجران اليمن وهي من أحسن مدن الثغور فلما أدركته الوفاة أوصى ابنه شيرزاد أن يحمل إلى إصطخر ناووس (٤) أبيه ففعل به ذلك .

فهؤلاء الملوك والجبابة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ولا غادروا في أسفارهم شهوة حنوا إلى أوطانهم ولم يؤثروا على ترابهم ومساقط رؤوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الأمم .

وهؤلاء الأعرابُ مع فافتهم وشدة فقرهم يحنون إلى أوطانهم ويقنعون بترابهم ومخالتهم .

ورأيت المتأدب من البراءكة المتفلسف منهم إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده في جراب يتداوى به .

(١) أشفى على الهلاك أشرف عليه .

(٢) الرمة بالكسر العظام البالية والجمع رمم ورمام .

(٣) وهذه القصة مذكورة في سيرة ابن هشام في قصة سيف ابن ذي يزن الحميري .

(٤) الناووس : تابوت يجعل فيه جثة الميت .

ومن أصدق الشواهد في حب الوطن أن يوسف عليه السلام لما أدركته الوفاة أوصى أن تُحْمَل رُمْتُهُ إلى موضع مقابر أبيه وجده يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام ؛ وروى لنا أن أهل مصر منعوا أولياء يوسف من حمله - فلما بعث الله موسى عليه السلام - وأهلك على يديه فرعون وغيره من الأمم - أمره أن يحمل رُمْتَهُ إلى تربة يعقوب بالشام وقبره معلوم بأرض بيت المقدس بقرية تسمى حسامى (١) وكذلك يعقوب مات بمصر فحملت رُمْتَهُ إلى إيلياء قرية ببيت المقدس وهناك قبر إسحق بن إبراهيم عليهما السلام .

ومن حب الناس للوطن وقناعتهم بالعطن إن إبراهيم لما أتى بهاجر أم إسماعيل مكة فأسكنها وليس بمكة أنيس ولا ماء ظمى إسماعيل فدعا إبراهيم ربه - فقال رب اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم - فأجاب الله دعاءه إذ رضي به وطناً وبعث جبرائيل عليه السلام فركض (٢) موضع زمزم برجله فنبع منه زمزم .

(١) كذا في الاصل .
(٢) الركض : تحريك الرجل ومنه قوله تعالى « اركض برجلك » .

ومر بإسماعيل وأمه فرقة من جرهم فقالوا أتأذنون
لنا أن ننزل معكم فقالت هاجر نعم - ولا حق لكم في الماء
فصار إسماعيل وولده قُطَّان مكة لدعوة إبراهيم عليه
السلام - نعم وهي مع جدوبتها خير بقاع الأرض إذ صارت
حرمًا - وإسماعيل وولده مسكنًا - وللأنبياء منسكًا ومجمعاً
على غابر الدهر .

وممن تمسك من بني إسرائيل عليه السلام بحب الوطن
خاصة ولد هارون وآل داوود عليهما السلام - لم يمت منهم
ميت في إقليم بابل في أي البلدان مات - ألا نبشوا قبره بعد
حول وحملت رمته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشام (١)
فيودع هناك حولاً فإذا حال الحول نقلت إلى بيت المقدس
وقال الفرزدق :

لكسرى كان أعقل من تميم
ليالي فرّ من بلد الضباب

فأسكن أهله ببلاد ريف
وجنات وأنهار عذاب (٢)

(١) كذا في الاصل .
(٢) الريف : كل أرض فيها زرع وتخل - وقيل هو ما
قارب الماء من أرض العرب وغيرها .

فصار بنو بنييه بها ملوكاً
وصيرنا نحن أمثال الكلاب

فلا رحم الإلهُ صدى تميمٍ
فقد أزرى بنا في كل باب (١)

وقال آخر في حب الوطن :

سقى الله أرضَ العاشقينَ بغيثه
وردَّ إلى الأوطان كلَّ غريب

وأعطى ذوي الهيئات فوق مناهم
ومتع محبوباً بقرب حبيب (٢)

تمت رسالة الحنين إلى الأوطان لأبي عثمان عمرو بن
بحر الجاحظ .

وقد طبعناها على نسخة نقلناها من نسخة في المكتبة
التيهوية كتبت سنة ١١٧١ وقد رجعنا في تصحيحها إلى
كثير من أمهات كتب الأدب فصحت بقدر الإمكان .

(١) الصدى : الجسد من الآدمي بعد موته - وطائر يخرج
من رأس المقتول اذا بلي فيما تزعم الجاهلية - وما يردده
الجبل على المصوت فيه .

(٢) ذوو الهيئات هم الذين لا يعرفون بالشعر .

تنبیه

قد أفرد أبا عثمان الجاحظ في الترجمة حكيمُ الأدباء
وأديب الحكماء أبو حيان التوحيدى وقد ذكر في كتابه
نكتة تدل على رغبة الناس بكتب الجاحظ قال :

ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى
النحوي الشيخ الصالح قال : سمعت ابن الاخشيد شيخنا
أبا بكر يقول ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء
كتبه ليكون ذلك كالفهرست ومرّ بي في جملتها (الفرق بين
النبي والمنتبي) وكتاب (دلائل النبوة) وقد ذكرهما هكذا
على التفرقة وأعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه إليه
فأحبت أن أرى الكتابين ولم أقدر إلاّ على واحد منهما وهو
كتاب (دلائل النبوة) وربما لقب بالفرق خطأ فهمتي ذلك
وساءني في سوء ظفري به ؛ فلما شخصت من مصر ودخلت
مكة حرسها الله تعالى حاجاً أقمت منادياً بعرفات ينادي

والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازع
أوطانهم وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب
ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب وهو المنظر الذي لا
يشابهه منظر (رحم الله من دلنا على كتاب (الفرق بين النبي
والمتنبي) لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان) قال فطاف
المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالحبيبة وقال : عجب الناس
مني ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به . - قال ابن
الآخشيدي - وإنما أردت بهذا أن أبلغ نفسي عذرها . قال
المؤلف وحسبك بها فضيلة لأبي عثمان أن يكون مثل ابن
الآخشيدي وهو هو في معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم
من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها
بعرفات والبيت الحرام وهذا الكتاب موجود في أيدي الناس
اليوم لا يكاد يخلو خزانة منه ولقد رأيت أنا منه نحو مئة نسخة
أو أكثر اه .

